كنا .. فأصبحنا

كيف انقلب حالنا ــ نحن المسلمين ــ من يسر الي عسر!؟

هذا هو السؤال..

.. كنا فأصبحنا.!!

كنا نزحف نحو المستقبل الهائل المضيء نردد صيحة محمد ودعوته الي العدل والحق والعمل، وتنهار تحت أقدامنا العارية إمبراطوريات في الشرق والغرب، ويولي أمامنا الطغاة ويستسلم لنا دعاه البغي والعدوان، ونمضي وراء محمد من نصر الي نصر نطوي بين ضلوعنا أيمانا برسالته، ولم تكن رسالته الي ثورة إنسانية أراد الله أن تقوم لتحرر البشر من الذل والحاجة والبطش...! لتعطي المحروم، لتهدي الضال، لتطعم الجائع، لترعي اليتيم.. لتنظيم علاقات الإنسان بالأرض والسماء.. لتحذره من الوهم.. من الجهل.. من الجمود..!

هذه هي ثورة محمد النبي الذي أراده الله أن يقودها لتتم المعجزة، وقد تمت منذ مئات السنين وشهد العالم كيف حررت دعوة محمد الشعوب وعصفت بالاستبداد والمستبدين.

هكذا كنا ــ نحن المسلمين ــ نعيش في كنف الحق والعدل والعمل.. !

فلماذا أصبحنا ــ ونحن الآن في كل شعاب الأرض ــ جياعا، جهلة، مرضي، مستعبدين!؟

مرة أخري هذا السؤال..

أننا ــ اتباع محمد ــ يتحتم علينا في هذه الأيام أن نندفع اندفاعا الي التأمل في حالنا .. في تعاستنا في شقائنا، في جهلنا، في تأخرنا.!

فنحن المسلمين قد ورثنا مشعلا مضيئا باهرا كان يمكن أن يهدينا الي طريق الحق والعلم والخير.. والسلام!

كان يمكن أن نصبح لو اهتدينا به أن نقف علي أقدامنا تحت الشمس عمالقة نقبض في أيدينا علي مقدراتنا وعلي رزقنا.. لا يهزمنا باطش، ولا يسخرنا ظالم ولا نشارك الدود في مصيره في حياته.!

وفي بلادنا.. في أسيا وأفريقيا وأوروبا خير كثير، وموارد هائلة لا حصر لها يمكن أن تجعل من حياتنا حلما جميلا رائعا ممتعا نعيشه في سلام.. لا نمرض ولا نجوع ولا نتعري، ولا نفتقد النور!

وكان يمكن أن نحقق هذا الحلم ثم قنعنا بالذل ورضينا بالتعاسة والبطش والسخرية!؟

فلماذا لم نحقق هذا الحلم الرائع الجميل كما حققه من قبلنا أجدادنا في قديم الزمان..

فلماذا لم نحقق هذا الحلم ثم قنعنا بالذل ورضينا بالتعاسة والبطش والسخرة!؟

والمشعل الباهر المضيء أورثه لنا محمد!؟

هل انطفأ ذلك المشعل فضللنا الطريق !؟

أم تري كان أجدادنا سحرة يسخرون الجن لتحقيق المعجزات.. ونحن لا حول لنا ولا قوة.!؟

لا هذا ولا ذاك...

فهم ــ أجدادنا ــ كانوا بشر مثلنا.. والمشعل الباهر المضيء لم ينطفئ... لأنه فكرة من الأفكار العظيمة التي لا تموت ولا تبدد..! من أذن فعل هذا بنا.. وجعلنا نعيش في هذه الحال التعسة؟!

انهم فئة منا.. حكموا بلادنا في الشرق والغرب، اختطفوا المشعل المضيء الباهر واخفوه عن أنظارنا لكي يستعبدوا. وبطشوا ويسلبوا، وينهبوا ثم يقولوا المسلمين. نحن أولياء عليكم فأطيعونا...

ويطيعهم المسلمون فيمضي الأولياء يحكمون والدنيا لهم والآخرة لنا.. هكذا فسروا رسالة محمد..

فالمسلم في رأيهم من يصلي ومن يصوم رمضان ويخرج الشهادة من جوفة، ويطيع أولي الأمر...

المسلم في رأيهم هو الذي يتعري ويجوع ويمرض ثم يموت.. المسلم في رأيهم هو الذي يؤمن بتفسيرهم لرسالة محمد، لا بتفسير محمد نفسه لرسالته....!

ومحمد لم يقل للناس صلوا وصوموا وانطلقوا بالشهادة ثم موتوا...

محمد قاد المسلمين في طريق العمل ، وليس في طريق السخرة... محمد جاهد وقاتل وأطلق دعوته في الأمصار، لا ليخضع الناس للكهنوت والغيبيات والقدر... بل ليعمل الناس وليعملوا ويعملوا ولا شئ غير العمل... فهو ــ العمل ــ وحده الذي يعصم الناس من الضلال من الشر... من الحرب... من الفقر... من الجهل.. من الزلل!

أما الذين اختطفوا مشعل محمد فقد كانوا أصحاب مصالح تتعارض مع مصالح الجماهير.. وقد شعروا أن تلك المصالح ربما عصفت بها رسالة نبي الله فزوروا الرسالة!

زوروها تحت سمع المسلمين وبصرهم.. وبالقهر والتضليل والقوة أخضعوا ــ المسلمين ــ لرسالتهم لا لرسالة محمد..

محمد الذي قال:

" لان يأخذ أحدكم حبله علي ظهره، ليتحطب ويعود اخر النهار ومعه خبزه ورزق عياله خير من أن يقضي نهاره في صيام وصلاة! "...

محمد أذن حقق المعجزة لانه دعا الي العمل.. وهم الحكام الذين اختطفوا المشعل خطفا لم يتركوا المسلمين يعملون كما أوصاهم محمد.. من أجل رزقهم وخبز عيالهم.. بل دعوهم الي العمل من اجل حماية مصالحهم ــ مصالح الحكام ــ والذود عنها والموت في سبيلها..

محمد كان ثائرا وهم كانوا ناعمين..

محمد كان مناضلا.. وهم كانوا طلاب متعة وعشاق لذة..

محمد كان حقيقة.. وهم كانوا وهما كبيرا..

وكان لابد لكي يصبح المشعل علي مرأي من أنظار المسلمين جميعا، يهديهم بعد محمد وأبي بكر وعمر وعلي أن يحمله ثوار مناضلون ودعاه عمل.. لا دعاه كهنوت وخنوع وموت!

كان لابد أن يقود المسلمين رجال قضوا أعمارهم في نضال وكفاح وأيمان.. لا في أسرة وثيرة أو في مقاعد تحوطها السلامة والأمان.. حتى كان يمكن أن يستأنف هؤلاء القادة المناضلون نفس الشيء..

الدعوة الي العدل والحق والعمل.. الدعوة الي محق الظلم لانهم عانوه.. والدعوة الي الحق لأنهم افتقدوه.. والدعوة الي العمل لانهم يؤمنون به!.. أما أن يأتي رجل لم يناضل ولم يكافح في سبيل شيء علي الإطلاق، في كل سنوات عمره. ويختطف مشعل محمد ثم يزعم أنه يريد أن ينقذ عباد الله ويهديهم الي الطريق..

لذلك الرجل لا شك سيصنع مأساة.. سيجعل من المسلمين أشباها له، لا يرغبون في كفاح أو في نضال أو في عمل..

سيجعل منهم فئة تؤمن بالانتهازية والخطف مثله، تؤمن بأن الدين صلاة وصوم وتمتمة بالدعوات وشعوذة وأفعال ومجاذيب... وتعصب وظلام، وجمود وخضوع لما هو مكتوب!!

وهذا هو السبب في ضياعنا. نحن المسلمين...

تركنا فئة منا تخطف المشعل الباهر المضيء لتنهب وتسلب وتحكم. ثم قنعنا في دنيانا بالصلاة والسلام علي محمد.. ومحمد برئ منا... لانه دعا الي الاحتطاب من أجل الخبز..

دعا الي العمل ثم فضله علي الصلاة والصوم.. وكانت هذه الدعوة تكفي لهدايتنا الي الطريق..!

تكفي لكي نتكتل من أجل أهدافنا...

كانت تكفي لكي نعرف أن الدين نضال وليس كلاما يخرج من فم رجل مجذوب يريد أن يتسلق الي أعلي فوق أكتاف المسلمين..!

وهكذا انقلب حالنا من يسر الي عسر!!

كل هذه الخواطر كانت تتدافع في رأسي وأنا أقف أمام الأمل...

أمام قبر أقوي الرجال وأقدرهم... نبينا المناضل الثائر الجليل...

تم لم أكد انتهي من مناجاتي حتى بدأت استعرض مستقبلنا.. نحن المسلمين في بقاع الأرض..

أن المستقبل يبدو لا شك مضيئا أكثر من الماضي.. فلم يحدث من قبل أن اصبح اتحاد المسلمين وتكتلهم في أسيا وأفريقيا وأوروبا أقرب الي التحقيق منه في تلك الأيام التي قضيتها مع أخي جمال عبد الناصر في الأراضي المقدسة.

أن جمال يؤمن كما تكلم في كتابة " فلسفة الثورة " بأن ملايين المسلمين في جميع الأمصار يمكن أن يكونوا قوة لا تقهر... وتستطيع تلك القوة أن تفرض نفسها فرضا تحت الشمس... تأخذ حقها في العلم وفي الرزق وفي الحياة... في العمل...

تم بعدها يتحقق الحلم الرائع الجميل الذي عاش فيه أجدادنا.. ثم استطاعوا بنضالهم أن يحققوه!

أن تكتل المسلمين وتشاورهم في أمورهم ونضالهم من أجل حل كل مشاكلهم أصبح أمرا قريب المنال.. بعد أن عرف المسئولون في بعض بلاد المسلمين السبب في مأشأتهم..

واني بعد أن سمعت بأذني الأحاديث التي دارت بين أقطاب بعض البلاد الإسلامية منذ أيام أستطيع أن اجزم بأن عصر اختطاف المشاعل التي تركها لنا محمد قد ولي لنا ولن يعود ...سوف تصبح المشاعل في أيدي المناضلين المخلصين الذين يؤمنون بالعمل لا بالموت!

ولم يحدث من قبل أن دار حديث في ارض النبي عن أحوال المسلمين مثلما حدث في تلك الأيام الرائعة التي قضيناها في الحجاز... تكلم الملك العظيم سعود مع أخي جمال وكان الحديث خطيرا ورب الكعبة...

تكلم سعود وجمال عن تونس ومراكش واستعرضا تطور قضايا الشعبين الشقيقين فقالا أنهما لا يستريحان الي أنصاف الحلول.. المسلمين في تلك البلاد.. وقال أخي جمال أننا في مصر قد جربنا هذا النوع من الحكم.. فعندما شعر الاستعمار بقرب انفجار المرجل اتفق مع حكامنا علي منح البلاد جزءا من الحرية... فماذا كانت النتيجة!؟

لاشيء... فالاستعمار يمضي في ظل الحكم الذاتي يمتص الدماء ويهدر الحقوق... وله في أعوانه من حكام البلاد الانتهازيين الخونة نصير كبير!

وتونس ومراكش لابد أن تحصلا علي استقلالهما كاملا بلا قيود... ويشفق جمال ويشفق سعود أن تكون مسألة الحكم الذاتي في تونس ومراكش هي نهاية المطاف!

ولا يكاد الحديث بين سعود وجمال ينتهي بعد أن افاضا في التشاور في الصومال.. والصومال ليس بلدا إسلاميا صرفا.. ولكن المسلم في الصومال هو مثل المسلم في مصر والحجاز وفي تونس في كل مكان... حقه في الحرية يجب أن ينتزع من أيدي الغاصبين... وجمال وسعود يريدان معاونة المسلم الذي في الصومال.. ومعاونة المسلم الذي في تونس.. ومعاونة المسلم الذي في تونس... ومعاونة المسلم في اخر الدنيا...

ثم يلتقي جمال بمحمد علي رئيس وزراء باكستان. وكان لابد أن يسأل جمال عن أحوال المسلمين هناك.. ويصر محمد علي أن يزور جمال بلاده ليري كيف نهضت، بعد أن خرج المستعمر وأصبحت باكستان دولة مستقلة.. ويعتذر جمال بكثرة مشاغلة في الوقت الحاضر.. ويصر محمد علي ويقبل جمال علي أن تكون الزيارة خلال رحلته لحضور مؤتمر جاكرتا.

وبحث جمال أمور المسلمين في كل مكان مع وفودهم... في الملايو... وفي إندونيسيا وفي المغرب وفي جنوب الجزيرة ، وفي تركستان وفي أفغانستان ومع وفود من قلب أفريقيا ومن علي شواطئها ...

كانوا يرون في جمال أملا جديدا كبيرا وتحدثوا معه وافاضوا... وتحدث هو وأفاض..

وبعد...

علي المسلمين في كل بقاع الأرض أن يأملوا في المستقبل... فسوف يجدون سبيلهم الـــي العدل، والحق، والعمل.. لأن مأساتهم أصبحت تحت أعين المناضلين الثوار أتباع محمـــد، ســـيد المناضلين وراعيهم...!

وهم لن يخطفوا المشعل ليطفئوه... بل سوف يرفعونه عاليا لكي يضيء للملايين الطريق...